

دراسات الأدب المعاصر، السنة الثامنة، خريف ١٣٩٥، العدد الواحد والثلاثون: صص ٩-٣٥

استدعاء الشخصيات النبوية وتطورها الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم المعاصر

محمد حسن أمراي*

تاريخ الوصول: ٩٥/٣/١٧

تاريخ القبول: ٩٥/٦/١٨

الملخص

إنّ ظاهرة استدعاء الشخصيات التراثية من أهمّ الظواهر التي أثرت في القصيدة المعاصرة على نطاق واسع وعمقت دلالاتها المتنوعة أكثر من عمقها الظاهر. إنّ الرافد الدينيّ من أغنى الروافد السخية الخصبة في حقل المصادر التراثية التي استمدت منه الشاعر محمود درويش ليغترف من أغوار الماضي ويصل به حاضره معبراً عن مشاعره البناءة المستشرقة للمستقبل المأمول الوصول إليه. هذا المقال بالاعتماد على المنهج الوصفي والتحليلي يهدف إلى دراسة شخصيات الأنبياء (ع) المختارة المستدعاة عند محمود درويش والتعبير عمّا تحمله هذه الشخصيات الدينية من معان ودلالات رمزية.

الكلمات الدلالية: الشعر العربي المعاصر، التراث، آدم وحواء (ع)، أشعيا وإرميا، محمود درويش.

المقدمة

التراث من أغنى المصادر التي تعود إليها الشاعر المعاصر؛ ليغترف من مناهلها ويتزوّد بذخائرها؛ لأنّه يعرف قيمته الفنيّة ودوره في ارتقاء الأثر وإعطائه الحيويّة والإصالة. إنّ عودة الشاعر المعاصر إلى التراث عودة فنيّة، لا تقوم على أساس المتابعة، هو يستلهم التراث في مكتسباته الأدبية، ليعبر بها عن خواجه الوجدانية وعن تجاربه الشعريّة. التراث غنيّ بالمضامين والدلالات والرموز المختلفة التي تساعد الشّاعر للتعبير عمّا يختلج في نفسه بشكل يُثير ذهن المتلقّي للبحث عن الفحوى، وأيضاً يحفظ الشاعر من القهر السياسي والاجتماعيّ الحاكم على المجتمع (نظري ووليئي، استدعاء شخصيّات الشعراء في شعر محمود درويش: ٢٣).

لقد احتلت الرموز والحكايات والأساطير بكلّ مستلزماتها حيّزاً واسعاً في الأدب العربي الحديث باعتبارهما «جزءاً من التراث الإنسانيّ عامة والتراث العربيّ خاصة وهما يوظفان في الأدب لإضاءة التجربة الفنيّة وإضفاء التجربة بعداً جديداً، ليخرج الأدب من مضغ الصور المبتذلة والحسيّة وليبتعد الشاعر عن الإغراق في الذاتيّة المحضّة ويكتسب العمل الأدبيّ نوعاً من الموضوعية والعمق الفنيّ» (أصلاني والآخرون، الرمز والأسطورة والصورة الرمزية في ديوان أبي ماضي: ٢).

إنّ محمود درويش من الشعراء المعاصرين الذين عنوا بتوظيف التراث بأنواعها المختلفة من الرموز والأساطير والقصص القرآنية والتوراتيّة و... في شعره. وله صلة وثيقة بالتراث، حيث تكرّر ورود الشخصيّات والأسماء منها: *جلجامش* و*عوليس* و*عنات* و*المتنبي* و*صلاح الدين* وأسماء الأنبياء والرسل (ع) ... إلخ، في شعره؛ لما فيها من مشابهة الصورة للواقع السياسيّ الفلسطينيّ والعربيّ التي عزّ ظهورها فيه وأصبح استدعاؤها أمراً ملحاً يفقد إلى أمثالها في واقعنا المعاصر وتشكل معادلاً موضوعياً لما يشعر به. من الملاحظ أنّ التراث جزء لا يتجزأ من الأدب الفلسطينيّ المعاصر، سيّما محمود درويش، حتّى تحوّل استخدامه إلى سمة من سماته الأسلوبية، بحيث من يلق نظرة عابرة إلى شعره يجده مليئاً بالقصص القرآنية والأساطير والنصوص الأدبيّة واستحضار الشخصيّات؛ وهو من بين الشخصيّات المستدعاة في شعره، استلهم من الشخصيّات اليهمسلامية (اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة على التوالي) استخداماً أكثر دون الآخرين. أخذ الشاعر هذا التراث

من مصادره المتنوعة وبطرق تعبيرية مختلفة. ومن هذا المنطلق، ارتقت القصيدة العربية الحديثة إلى مستويات إبداعية مبتكرة متطورة تتوازي مع أعظم الأشعار العالمية في القرن العشرين. هذه الدراسة تسعى إلى تسليط الضوء على أهم الشخصيات المستلهمة وتطورها الدلالي في شعر محمود درويش ومكانته الهامة في خريطة الشعر العربي.

سابقة البحث

هناك العديد من الدراسات والإصدارات العربية والفارسية التي تناولت محمود درويش والكثير منها يتعلق بموضوع التناسخ والتراث والرموز في شعره، منها: ١. «الرموز التاريخية والدينية والأسطورية في شعر محمود درويش» (٢٠١٠م) مقال للكاتب محمد فؤاد السلطان، خصصت لدراسة الرموز الأسطورية وأهميتها وأسطورة الرمز وأشكال توظيف الرمز الأسطوري. ٢. «الرمزية الميثولوجية في شعر محمود درويش والصراع على ذاكرة المكان» (لاتاً) مقال للباحث اللبناني ظافر مقدادى، كتب الباحث عن رمزية الميثولوجيا في شعر محمود درويش بمناسبة مرور عام على رحيله. ٣. «التناسخ الديني والتاريخي في شعر محمود درويش» (١٩٢٨ق - ٢٠٠٧م)، أطروحة قدمتها الطالبة ابتسام موسى عبدالكريم أبو شرار لنيل درجة الماجستير في قسم اللغة العربية في عمادة الدراسات العليا في جامعة الخليل وقد ناقشت الباحثة في محتوياتها التناسخ الديني عبر شخوص القصة الدينية، كما درس كذلك التناسخ التاريخي والتشكيل الجمالي في إطار التناسخ الديني والتاريخي في شعر محمود درويش. ٤. «التوراتيات في شعر محمود درويش» للباحث أحمد أشقر (٢٠٠٥م). ٥. «التراث الغزلي في شعر محمود درويش وقصر امين بور» لمحمد رضا عزيزي (١٣٩١ش). ٦. «ظاهرة التناسخ في لغة محمود درويش الشعرية» للباحثة الإيرانية مرضية زارع زرديني (١٣٨٨ش). وغيرها من الدراسات المتناثرة في ثنايا الكتب والمجلات المنشورة في المواقع الإلكترونية التي رتبت بأشياء مهمة عن استدعاء الشخصيات وتطوراتها الدلالية، فاتها أشياء أخرى لا تقل أهمية عنها، ورغم ذلك لم نعثر على دراسة شاملة وافية مركزة لموضوع المقال: استدعاء شخصيات الأنبياء والرسول (ع) وتطورها الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم (محمود درويش نموذجاً)، اللهم إلا هناك بعض الدراسات السابقة التي ساعدتنا وأسهمت في إختيارنا لهذا الموضوع هي:

«استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر» للباحث على عسري زايد وأشكال التناص الشعري (دراسة في توظيف الشخصيات التراثية)» للباحث أحمد مجاهد و«استدعاء شخصيات الشعراء في شعر محمود درويش» مقال للدكتور على نظري ويونس وليئي. هذه الدراسات وأخرى أسهمت في تحديد مسار وإثرائه فكانت خير عون لنا. لا يفوتنا أنّ هذا المقال يختلف عن هذه الدراسات كلّها والدراسات الأخرى المرتبطة في هذا المجال؛ لأنّه يختصّ بتناول استحضار شخصيات الأنبياء والرسول (ع) في شعر محمود درويش فقط لا غير.

ضرورة وأهمية البحث

بما أنّ الشعراء الفلسطينيين أولو اهتماماً كبيراً بالمعطيات الدينية التي تتعرض لليهود وجرائمهم واستغلوا من الموروث الديني المواقف الثورية، التي وقفت في وجه الظلم والقهر وقد كانت شخصيات الأنبياء والرسول (ع) من أكثر الشخصيات الدينية حضوراً لثرائها الدلالي وطاقتها الإيحائية الهائلة وقدرتها على حمل أبعاد التجارب الشعرية المعاصرة وقربها من معاناة وهموم الشاعر المعاصر تجاه وطنه، نحن رصدنا مظاهر هذا الاستلهم في شعر محمود درويش بالدراسة والتنقيب.

هدف البحث

يهدف هذا المقال إلى دراسة نماذج ومقتطفات شعرية من محمود درويش في ضوء الرمزية، ذلك لتظهر مدى فاعلية الصور الرمزية والشخصيات الإيحائية التراثية في إثارة المخاطب ومدى تأثيرها في إلقاء وتوصيل الرسالة الأدب النضالي إلى المتلقى.

أسئلة البحث

١. ما هي الرموز الشخصية التراثية التي استمدّها الشاعر محمود درويش من موروثه الشعري؟
٢. كيف عبّر محمود درويش عن تجربته الشعرية من خلال هذه الشخصيات الدينية المستدعاة في شعره؟

فرضيات البحث

١. إن محمود درويش كغيره من الشعراء الملتزمين بقضية القدس وفلسطين تناول الشخصيات الرمزية المختلفة من اليهودية والمسيحية والإسلامية وغيرها في شعره واستحضرها لتجسيد صورة من صور المقاومة، دفاعاً عن كينونته وهويته القومية والوطنية ومقاومة ضد العدو الصهيوني الذي جرد الفلسطينيين من أرضه.

٢. يتضح أن الفرضية الرئيسية التي يحاول هذا المقال إثباتها، فهي أن الشخصيات المستدعاة في شعر درويش لا تحمل دلالة ثابتة تعدّ مرادفاً لها في الوعي الجمعي فحسب، بل أخذ الشاعر الرموز الشخصية، ثمّ قادها وساقها إلى المنظورات المعاصرة الراهنة.

منهجية البحث

إنّ هذا المقال أختار المنهج التوصيفي والتحليلي، في سبيل إنجاز دراسته وبعد تطرّق موجز إلى بعض المقدمات المستلزمة فيه وفقاً للكتابة الجديدة، استقصى إلى تحليل ودراسة مقتطفات شعر محمود درويش بغية إزاحة الستار عن مدى تعالق الرمز والأدب المقاوم. وهو أنجز مهمته بدراسة الشخصيات الرمزية المعهودة من التوراتية والمسيحية واليهودية والإسلامية والكنعانية أولاً ثمّ ركز على دراسة وتبيين إيحائها الخاصة وتطوراتها الدلالية المختلفة.

أهمية استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر المعاصر

للتراث أهمية بالغة في تشكيل شخصية الشاعر المعاصر وتطوير أفكاره. لقد جاء في كلام على عشري ز/يد ما يدلّ على توظيف التراث في العصر الحاضر، حيث يقول: «لقد كان التراث في كلّ العصور بالنسبة للشاعر المعاصر هو ينبوع المتفجّر بأصل القيم وأنصعها وأبقاها والأرض الصلبة التي يقف عليها يبنى فوقها حاضره الشعري الجديد» (عشري زايد، توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر: ٧).

تكمن أهمية التراث هنا في كونه مصدراً دائماً لا ينضب، بكلّ القيم الفكرية والروحية الراسخة التي يعود إليها الشاعر المعاصر ليبنى تجربته الشعرية.

يذهب محمد فؤاد السلطان لهذا القول بأن: «استدعاء الشخصيات التراثية في الحقيقة محاولة لقراءة واقعنا المعاصر لنعرف من خلال هذه المقارنة بين الماضي والحاضر، مقدار الخلل الذي أصاب الأمة في حاضرها وتقديم حلول لهذه المشاكل من خلال استلهاهم التراث» (السلطان، الرموز التاريخية والدينيّة والأسطورية في شعر محمود درويش: ٣). إن عودة الشاعر المعاصر إلى هذا التراث الإنسانيّ لاستنباط ما فيه من قيم روحيّة وإنسانيّة راسخة في وعي هذا الشاعر تمثل دعامة تجربته الشعريّة والأدبيّة والربط بين زمنين ماض وحاضر لتحقيق المستقبل.

للتراث أهميّة بالغ في الحياة العامة للإنسان وللشاعر المعاصر بصفة خاصة؛ إذ يمثّل له جذوره الممتدة في أعماق الماضي بكلّ ما فيه من بطولات وهزائم، يتّخذها رمزاً للإشادة والافتخار بماضيه كما تشكل صورة مبطنة للحظة الراهنة، فهو إذا جسر ممتدّ يربط بين ثلاثة أزمنة ماض، حاضر، مستقبل، وذلك من خلال دمج الماضي بالحاضر أو استلهاهم ما يناسب التجربة الشعريّة الخاصة بالشاعر وفقاً لبيئته وظروفه وربطها باللحظة الراهنة للتعبير عن المستقبل تفاعلاً به أو تشاؤماً منه.

نظراً لأهميّة هذا التراث يتّخذ الشاعر المعاصر جملة من المراحل والخطوات في توظيفه، وفي استدعائه لشخصيّاته بشكل خاص ويتخلل هذه المراحل استخدامه لآليات وأنماط متعددة تبرز قدرته في استحضاره والتوغّل في أغواره» (سعيدة دباخ، استدعاء الشخصيات التراثيّة في شعر حسين زيدان: ١١).

استدعاء الشخصيات هو أحد عناصر التراث ومعطى من معطياته وتقنية استدعاء الشخصيات التراثيّة تعدّ إحدى الوسائل التعبيريّة التي يلجأ إليها الشاعر المعاصر؛ لتحديث بنية القصيدة العربية قصد الوصول إلى تشكيل رؤاه للعالم وللكون والتعبير عمّا يحسّ به من معاناة أمته العربية وأزمته، الأمر الذي يدلّ على ما ذاق الإنسان العربي في عالمنا المعاصر (نظري ووليئي، استدعاء شخصيات الشعراء في شعر محمود درويش: ٢٣؛ منقولاً عن عبدالرحيم حمدان: ٣). استدعاء الشخصيات بالنسبة للشاعر ليس مجرد ذكر للشخصيّة أو الأخبار عنها فحسب، بل المعرفة الواعية بملامح تلك الشخصيات وأبعادها الدلالية ومن ثمّ المقابلة بين تلك الملامح والقضايا، التي يعيشها الشاعر في واقعه، ثمّ التعبير عن هذا الواقع من خلال الشخصيّة المستدعاة بطرق تعبيرية مختلفة تبتعد كثيراً

عن مجرد ذكر الشخصية، أو سرد أحداثها، كما وردت في كتب التاريخ والتراث (المصدر نفسه: ٢٧). هذا المقال يرصد شخصيات الرسل والأنبياء (ع) المختارة المستدعاة وتطوراتها الدلالية في شعر محمود درويش.

الشخصيات المستدعاة في شعر محمود درويش النبى محمّد (ص) = الصمود والإصرار والثورة على الظلم

يستدعى الشاعر الشخصيات التراثية الدينية أمثال: آدم وقابيل وهابيل ونوح وأيوب ويوسف وهاجر وخديجة (ع) والنبى محمّد (ص)، حيث يستدعى شخصية النبى أيبوب (ع) عندما يشعر بالضياع والألم الشديد، فيقول: «أيوب مات» (درويش، الديوان، ج ٢: ١٧) متوخياً أن صبر الفلسطينيين انتهى.

وأما النبى محمّد (ص) فيقول عنه عندما يشير إلى ماضى فلسطين وتقدس أرضها ومعراج النبى فيها:

وهذا صعود الفتى العربى إلى الحلم والقدس...

سيّدتى الارض

فى شهر أذار تستيقظ الخيل ...

(المصدر نفسه، ج ١: ٦٤٤)

وأيضاً يستدعيه فى قصيدته «نشيد» ليشكو إلى محمّد (ص) من سجنه وتشرده ونفيه، فيرشد النبى محمّد (ص):

تحدّ السجن والسجان

فإن حلاوة الإيمان

تذيب مرارة الحنظل

(المصدر نفسه، ج ١: ١٥١)

استلهم درويش بعض رموزه من «التراث الدينى الإسلامى وما يتعلّق بحياة محمّد (ص)، حيث استخدم رمزاً شاملاً للإنسان العربى سواء فى انتصاره أو عذابه» (طاقة، ديوان الأعور الدجال والغرباء: ٤١). إن الشاعر زوّد نصوصه الشعرية بأشكال مختلفة من ألفاظ القرآن ومعانيه وقصصه التى يعجّ بها الشعر العربى المعاصر. من هذا المنطلق، إنّه

وظّف شخصيّة النبي محمّد(ص) - التي انفرد بها القرآن الكريم- ضمن إشارات رمزية، من خلال توظيف اسم الشهيد الطفل محمّد الدرّة تارة وتوظيف النص القرآني تارة أخرى، كما نلاحظ في نهاية النص(فاصعدْ الى سِدرة المُنْتَهى)؛ ليجسّد رمزاً لإصرار اليسوع في الوصول إلى الهدف الوطني والسياسي وهو الصمود والإصرار والثورة على الظلم، سيما أنّ الظالم هو نفسه وهم اليهود. حيث الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش قد رثى الطفل محمد الدرّة في ذكراه في قصيدة طويلة معنونة بـ«محمّد» ومنها:

مُحَمَّدُ

يُعَشِّشُ فِي حِضْنِ وَالِدِهِ طَائِراً خَائِفاً
مِنْ جَحِيمِ السَّمَاءِ: احْمَنِ يَا رَبِّي
مِنْ الطَّيْرَانِ إِلَى فَوْقِ إِنَّ جَنَاحِي
صَغِيرٌ عَلَى الرِّيحِ ... وَالضَّوْءُ أَسْوَدُ ...
مُحَمَّدُ،

يريدُ الرجوعَ إلى البيتِ، مِنْ دُونَ دَرَّاجَةٍ... أَوْ قَمِيصٍ جَدِيدٍ ...
يَسُوعُ صَغِيرٌ يَنَامُ وَيَحْلُمُ فِي
قَلْبِ أَيْقُونَةَ
صُنِعَتْ مِنْ نَحَاسٍ
وَمِنْ عُصْنِ زَيْتُونَةٍ
وَمِنْ رُوحِ شَعْبٍ تَجَدَّدَ
مُحَمَّدُ، دَمٌّ زَادَ عَنْ حَاجَةِ الْأَنْبِيَاءِ
إِلَى مَا يُرِيدُونَ، فَاصْعَدْ
إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى
يَا مُحَمَّدُ!

(درويش، الديوان، ج ١: ٥٨٤)

يوظّف محمود درويش ببراعة كاملة التراث الإسلاميّ في حادثة «الإفك» ليصوّر مدى المعاناة التي يلقاها الإنسان الفلسطينيّ والمتمثّلة في البحر والموج والغرق الذي يرمز به للرحيل من ناحية وللعُدوّ الصهيونيّ ومن يقفون وراءه من ناحية أخرى، يقول:

ألفُ شُبَّاك على البحرِ الذي قد أغرَقَ الإغريقَ
كى يُغرِقنا الرومانُ
بيضاءُ هى الجدرانُ
زرقاءُ هى الموجةُ
سوداءُ هى البهجةُ
والفكرةُ مرأةُ الدماءِ الطائشةُ
فلتُحَاكِمِ عائشهُ
ولتُبْرَأِ عائشهُ
آه، لا شىء يثير الروح فى هذا المكانِ

(المصدر نفسه، ج ٢: ١٥٤)

تتداخل شخصية النبي محمد(ص) مع تجربة محمود درويش؛ لكنه لم يبلغ من العمق والكثافة والبروز ما بلغته شخصيات أخرى كشخصية يوسف والمسيح عليهما السلام مثلاً، وقد يعود ذلك إلى مدى الانسجام بين الشخصية وبين الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر ويكون ذلك نابعاً من إحساسه تجاه ذاته أو تجاه الواقع؛ إذ يقول مستدعياً العلم محمد رمزاً فى قصيدة «مع محمد»:

ألو
أريد محمد العرب
نعم! من انت؟
سجين فى بلادى
بلا أرض
بلا علم
بلا بيت
رموا أهلى الى المنفى
وجاؤوا يشترون النار من صوتى
لأخرج من ظلام السجن
ما افعل؟ ويجيبه الرسول العربى: تحدّ السجن والسجان

فان حلاوة الإيمان تذيب مرارة الحنظل

(المصدر نفسه، ج ١: ١٥١)

واضح هنا، إنه يستحضر النبي محمد(ص) كى يحثه على مقاومة قامعيه. والمفارقة أنه ليس هو الذى يقرّر بنفسه الثورة ومقاومة قامعيه وإنما يستدعى محمد(ص) كى يحثه على المقاومة.

يستعين الشاعر بحكمة النبي محمد(ص) بوصفه حاملاً لرسالة سماوية تحمل فى سبيلها عقبات الدهر ولم ينثن أمام العراقيل التى تعترض سبيله ومن هنا تكون هذه الشخصية جديدة بأن تُستلهم الحكمة وتُستمد العبرة من سفرها الخالد، فليس لنبى آمن برسالته وأصرّ على نشرها متخطياً كلّ السبل إلاّ أن يحثّ الفلسطيينىّ على التحدىّ حاملاً رسالته الوطنية، مؤمناً بحتمية توصيلها، فمن هنا ينتهى الموقف بالأخذ بحكمة النبي محمد(ص) التى يصوغها الشاعر: «تحدّ السجن والسجان فإن حلاوة الإيمان تذيب مرارة الحنظل» ومن هنا يكون الرمز "محمد العرب" قادراً على حمل ذاكرة المتلقى إلى الماضى الزاخر بالعبء فى إطار الزمن الحالى؛ إذ أن الرمز فى رأى أدونيس «ما يتيح لنا أن نتأمل شيئاً آخر وراء النصّ، فهو بعد خفى وإيحاء» (أدونيس، زمن الشعر: ١٦٠)

هذا هو محمود الذى ينحاز فى كلّ ما صدر عنه إلى فقراء الوطن، والذى تبصّر منذ تفتحه بالرؤية الثورية وتسلّح بالفكر الاشتراكى التقدّمى، ومنتخ من الموروث الفلسطيينىّ والعربىّ والعالمىّ المنفتح، فولج عالم الشعر واثقاً صادقاً مخلصاً مؤمناً بعدالة قضيته، يعانى ويتحدى ويسجن من أجلها. إنه شاعر مأساة. فلسطين همّه وهاجسه يوظف لأجلها كل طاقاته الشعرية وكل طاقته الفنية بصور رائعة و"مبنى استعارى" جميل متجدد وموسيقى عذبة دافقة ومفردات أنيقة متناغمة منسجمة فيصير العادى بين يديه دهشة يلتحم الأنا بالقضية، وتندغم الذات بالوطن، ويمتزج الخاص بالعام، ويتوحد العدل بالحرية، ولا نهاية للنضال الفلسطيينى لأنه عادل حتى التحرّر فيها هو يقول فى قصيدته المعنونة بـ«تحدّ»:

مليون عصفور

على أغصان قلبى

يخلق اللحن المقاتل

يوظف الشاعر «رمز الشخصية في القصيدة الحديثة ويسقط الأبعاد المعاصرة للرؤية الشعرية على ملامح تلك الشخصية؛ إذ توحى هذه الملامح إحياء رمزياً بالرؤية المعاصرة.» (عشرى زايد، توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر: ٢٠٧). فالشخصيات الرمزية تتميز باكتسابها السمة الإيحائية القادرة على إغناء الفكرة وإكسابها شكلاً مغايراً لصورتها الأولية ويحاول إدراكها بخياله إلى جانب عقله. يقول الشاعر مستخدماً الرمز "أحمد العربي" وسيلة إحياء:

الآن أكمل فيك أغنيتي
وأذهب في حصارك
والآن أكمل فيك أسئلتى
وأولد من غبارك ...
أكلما نهدت سفرجلة نسيت حدود قلبي
والتجأت إلى حصار كي أهدد قامتي
يا أحمد العربي؟ لم يكذب على الحب ...

(درويش، الديوان، ج ١: ٦١٦)

فالشاعر اقتنص من الماضي ما يتناسب مع إشكالات الحاضر، فيعيش النصّ المقتنص داخله وتحلّ ظروفه في نفسه وتلتحم بإحساساته والشاعر هنا يقتنص جزئياً الآية نفسها المتصلة بـ"حجة الوداع". ويستدعي العلم "أحمد العربي" والرسالة التي يحملها هي الأغنية والأسئلة وهي تعادل المشوار النضالي المبذول في سبيل الوطن و"أحمد العربي" يمثل الفلسطينيّ حاملاً رسالته ومنتصراً على الصمت ولعلّ حرف النداء المقتنن بذلك الرمز يمدّه بمكانة متميزة ويوليه مهمة ما تفصح عن تلك المكانة.

آدم وحواء(ع)= الفلسطيني والفلسطينية

صوّر الشعراء الفلسطينيون عمق الصراع الإنسانيّ من خلال شخصيتي آدم وحواء ووقفوا أثناء ذلك أمام معاناة وجودية وتجربة إنسانية مؤثرة، وصدّوا تلك المعاناة عبر الزمن؛ ودرويش واحد من أهمّ الشعراء الفلسطينيين الذي استأنس بهاتين الشخصيتين؛ لما لمسّه من قواسم نفسية مشتركة تصطدم بوجودانه وتقارب أفكاره؛ ممّا أكسب النصّ

المبتدع ملامح خاصّة، تجمع ما بين النصين المتماسين وتتصل بالذاتي والاجتماعي والإنساني في آن وتقارب بين الشخصيات الإنسانيّة عبر أزمنة متباعدة؛ وذلك بإيجاد صفات مشتركة بينهما تثيرها بعض المعالم والظروف المتصلة بآدم وحواء ومن تلك المعالم حقيقة الخلق؛ إذ استلهم درويش هذه الفكرة ليعبر عن الوجود الفلسطيني وقوّة التلاحم بالأرض التي جبل منها وكانت له مكان وجود؛ إذ يقول:

هنا، "لا أنا"

يتذكّر آدم صلّاته

سيمتدّ هذا الحصارُ إلى أن نعلّم أعداءنا

نماذج من شِعْرنا الجاهلي

(درويش، حالة الحصار: ١١)

ههنا معركة للبقاء والبقاء أي يكون لك هوية لتدلّ عليك وعندما تحصل على ما يدلّ عليك، سيكون من المرعب فقدانه؛ لأنّ ذلك يعني الضياء واللاوجود (شاهين، التلقّي والنصّ الشعريّ: ١٩). فالتعبير عن الوجود في الشعر يجد متّسعة عبر الرموز والطين في السياق السابق رمز لوجود الفلسطينيّ وهويّة بقائه، فإن كان يعني بالنسبة لآدم (ع) حقيقة الخلق، فلعلّه يعني بالنسبة للشاعر الوجود والانتماء تحت لهيب الاحتلال وتحت وطأة الحصار النفسي والمادي على الأرض، فالشاعر يعكس لحظة تاريخيّة حرجة من حياة الفلسطينيّ داخل وطنه. ههنا في المقطوعة السابقة يجسّد الشاعر لحظات الحصار الطاغى في "رام الله" واسم الإشارة «هنا» يستعرض لحظة سكون الماضي في النفس واستعادة ذلك الماضي في لحظات الإحساس بالوجود في غمرة الضياع على أرض الوجود، منشأ الشاعر. إنّها لحظة تجسيد للكينونة الملهمّة للقوّة، ويأتي ذلك بالتناس مع الآية القرآنيّة ترتبط بقصة آدم (ع) وهي يتّضح في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٨)

وهل يرمز آدم (ع) إلى غير الفلسطينيّ المترنّح للحرية على بقعة وجوده وتكوينه؟ في مجال آخر، نلاحظ محمود درويش يتناس شعره مع الجانب المتّصل بقوله تعالى الذي يعدّ جزءاً من قصة آدم (ع):

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة/ ٣١)

صَادِقِينَ﴾ (البقرة/ ٣١)

فقد استمد الشاعر فكرة النصّ القرآنيّ ولغته ذات الصلة بالقصة الدينيّة، حيث يقول:

نحن الثنائىّ السماء- الأرض، والأرض- السماء

وحول سورّ وسورّ

ماذا وراء السورّ؟

علم آدم الأسماء كى يتفتح السر الكبير

والسرّ رحلتنا إلى السرىّ

إنّ الناسَ طيرٌ لا تطيرُ

(درويش، الديوان، ج ٢: ٤٥٤)

«تشير التسميّة هنا إلى بدئية المعرفة أولاً وإلى تجذير الهوية وإثبات الوجود ثانياً، فالشاعر يحاول تسمية الأشياء من جديد؛ ليمنحها رؤيته الفكرية» (غنايم، مرايا في النقد، دراسات في الأدب الفلسطيني: ١٢٣) ويكشف محمود درويش عن هذه التسمية من خلال تعليم الأسماء، فد "آدم" هو الفلسطينيّ في طريقه نحو آماله وأهدافه. في مجال آخر، يستدعى الشاعر شخصية آدم استدعاءً مباشراً ويتناص معها بصورة مخالفة؛ إذ يرى أنّ قضية آدم (ع) وخروجه من الجنّة تختلف عن قضيته وخروجه القسرى من بيروت، حيث يقول:

لست آدم كى أقول خرجت من بيروت

منتصراً على الدنيا ومنهزماً أمام الله

(درويش، الديوان، ج ٢: ٧٣)

إنّ محمود درويش يذكر خروج آدم (ع) من الجنّة صورة مشابهة لخروج الفلسطينيّ من "بيروت"، حيث يرفض الشاعر نظرياً مبدأ الخروج ويعتقد أنّ هزيمة آدم (ع) أمام الله تعالى تكون منطقيّة طبيعيّة من ناحية ومتوقّعة من ناحية أخرى، أمّا خروج الفلسطينيّ من بيروت فليس له ما يبرره سوى الإجحاف والهيمنة الإستعمارية، من هنا يرفض الشاعر الهزيمة أمام عدوّه ويمقت ذلك العدوّ كلّ المقت. استحضّر درويش فكرة خروج آدم (ع) من الجنّة بصياغة جديدة، في قصيدته المعنونة بـ "تعاليم حوريّة" التي أخذت منها

المقطوعة جزءاً من سيرته داخل الوطن ويشير إلى الخروج منه غير مرة، حيث يتضاعف فيها فعل الطرد:

لا وَفَتَ حَوَّلَكَ لِلْكَلامِ العاطِفِيَّ
عَجَنْتِ بِالْحَبَقِ الظهيرةَ كُلَّها
وَخَبَزَتْ لِلْسَمَاقِ
عُرْفَ الدِيكِ أَعْرِفُ ما يُخَرِّبُ قَلْبَكَ المَثْقُوبَ
بِالطاووسِ، مُنْذُ طُرِدْتَ ثانياً مِنَ الفردوسِ

(درويش، لماذا تركت الحصان وحيداً: ٧٩)

شبه الشاعر العدو الصهيوني بالطاووس في مجال ظلمه واضطهاده في فلسطين كما شبه أرض الفلسطينيين بالفردوس المفقود لآدم(ع) الذي أخرجها من يده. وأياً كان من المعنى المختبئة وراء النص، فحضور القصة الدينية المتصلة بشخصيتي آدم وحواء يأتي مستلهماً من القرآن الكريم والتوراة، نظراً للتشابه بين الأفكار الواردة في هذين المصدرين، وإن كان بعض ملامح الآيات القرآنية أكثر تجلياً.

إسماعيل(ع) = وضعية الفلسطيني مغترباً ومتضحياً ومتجذراً في تاريخه

إنَّ «شخصية/إسماعيل يعتبر واحداً من السلالات التي انحدر منا العرب»(الملوحي وآخرون، نشأة العالم والبشرية دراسة معاصرة في سفر التكوين: ٧٦). فلذلك يكون استحضارها موضوعاً للتناسل معبراً عن تأريخية الفلسطيني وأصل وجوده، كما يعبر عن مشاعر الاغتراب والوضعية النفسية التي يعيشها الفلسطيني مشابهاً لإسماعيل(ع). فقد استلهم درويش تلك الشخصية بوضوح في قصيدته «عود إسماعيل» الواردة تحت عنوان "فضاء هابيل" وقد تكرر في متن تلك القصيدة استدعاء العلم/إسماعيل سبع مرّات وفي تلك القصيدة «يكون الغناء بمصاحبة أوتار عود/إسماعيل استعارة لاسم جدّ العرب إسماعيل بن إبراهيم وإعادة تمثيلية للتكوين الأول»(حاتم الصّكر، مرايا نرسييس الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة: ١٦٩)؛ حيث يقول الشاعر:

مسافةً تكفى لتنفجرَ القصيدةُ

كان إسماعيلُ

يهبط بيننا، ليلاً ويُنشدُ: يا غريبُ
أنا الغريبُ وأنت مني يا غريبُ! فترحلُ
الصحراءُ في الكلمات والكلمات تُهملُ قُوَّةَ
الأشياءِ عُدَّ يا عودُ ...
بالمفقودِ، واذبحني
عليه، من البعيد إلى البعيد ...
في عودِ إسماعيلَ يرتفعُ الزَفَافُ السُّومَرِيُّ
إلى أقاصي السيفِ لا عدَمَ هناك
ولا وجودٌ مسنًا شبق إلى التكوين: ...

(درويش، لماذا تركت الحصان وحيداً: ٤٨)

إن الشاعر إذ يعاني حالة حزن شاملة تمتد من الماضي إلى الحاضر يحاول إعادة التكوين عبر عود / إسماعيل؛ إذ يرسم تفاصيل المشهد بجعله "إسماعيل" يحمل عوده منشداً في قصيدته (المصدر نفسه: ٥٤): «يا غريب، أنا الغريب، وأنت مني يا غريب» ومن هنا يكون استحضار شخصية / إسماعيل (ع) تعبيراً عن الغربة، فالفلسطينيون والإسماعيل يعيشون الاغتراب في ضوء ملفوظات الشاعر السابقة و في ضوء الواقع التاريخي لكل منهم، فمخاطبة الغريب بالنداء إشارة إلى الفلسطيني والضمير "أنا" يشير إلى "إسماعيل" رامزاً للفلسطيني. ههنا درويش أراد أن يقول كلنا غرباء على الأرض، منذ طرد آدم (ع). وهو غريب على هذه الأرض التي يحيا عليها مؤقتاً إلى أن يستطيع العودة إلى جنته الأولى.

في مجال آخر في محطات من قصيدة «فضاء هابيل - عودُ إسماعيل» يستدعي محمود درويش، شخصية / إسماعيل في هيئة مغنٍ يعزف عوده ويعيد تشكيل الحياة بغنائه ويجري الوجود على الأرض ويمكنه وسط اللا ممكن، حيث يقول:

كلّ شيء سوف يبدأ من جديدِ
يتحركُ المعنى بنا ...
فنطيرُ من سفحِ إلى
سَفْحِ رُخَامِي وَنرْكُضُ بين هاوَيْتَيْنِ زَرْقاوينِ

لا أحلامنا تصحو ولا حرسُ المكانِ
يغادرون فضاءَ إسماعيلَ لا أرضٌ هناكَ
ولا سماءٌ مسَّنا طرباً جماعياً أمامَ
البرزخِ المصنوعِ مِن وتريينِ إسماعيلٍ... غنَّ
لنا ليصبحَ كلُّ شَيْءٍ مُمكنًا قُربَ الوجودِ...

(المصدر نفسه: ٤٧)

ههنا رمز "إسماعيل" أحد عناصر القصة الدينية التاريخية التي ولدها فكر محمود درويش الشعري لمواكبة واقعه المحدث.

في مكان آخر، في قصيدة «مأساة النرجس، ملهاة الفضة» يستلهم محمود درويش قضية الفداء والتضحية المتعلقة بقصة إبراهيم(ع) والخلاف ما بين التوراة والقرآن الكريم حول كون الابن الذبيح إسماعيل أو إسحاق(ابن كثير، قصص الأنبياء: ١٠٣ - ١٠٢)، يقول:

لم يسألوا عما وراء مصيرهم وقبورهم ما شأنهم بعد القيامة؟
ما شأنهم إن كان إسماعيلُ أم إسحقُ شاةً للإله؟
هذا الجحيم هو الجحيمُ ...

(درويش، الديوان، ج ٢: ٤٢٣)

لم يكن استلهم الفكرة من أجل إثارة الخلاف في ذاته ولا من أجل إثارة خلاف مستمد من الواقع، فلعله إشارة إلى مرحلة زمنية يتوصل فيها الفيلسوف الحالم إلى هدفه غير مبال بالتضحيات وبمن يضحى؛ وإنما نشوته بالوصول إلى حلمه تنسيه آلامه وتضحياته ولعل "شاة للإله" هنا شاة الوطن، إذا ما كان الله في رأى درويش يأخذ اسماً جديداً هو الوطن، الله هو الوطن.

المسيح(يسوع)(ع)= الحكيم المضحى من أجل الإنسانية

يأتي في طليعة الرموز الدينية والأسطورية الموظفة في القصيدة الحديثة رمز مسيح(ع) وليكن ليس من قبيل المبالغة إذا قيل «إن من النادر أن نجد شاعراً لا يوظف هذه الشخصية وما يرتبط بها من دلالات تنسجم مع الواقع الذي يعيشه»(سليمان، ظاهرة

الغموض في الشعر الحر: ٧٢)؛ ويتضح أنّ «من الشخصيات المقدسة التي عمد الشعراء الفلسطينيون المعاصرون إلى استدعائها شخصية المسيح(ع) التي أحسّ الشعراء إزاءها أنّهم أكثر حرية، ومن ثمّ أطلقوا لأنفسهم العنان في تأويل ملامحها وانتحالها لأنفسهم، وتلك الشخصية في الشعر الفلسطينيّ مستمدة من الموروث المسيحي وخصوصاً «الصلب» و«الفداء» و«الحياة من خلال الموت»(البندارى والآخرى)، التناس في الشعر الفلسطينيّ المعاصر: ٢٥٧). يستفيد محمود درويش من هذه الدلالات المتنوعة التي تفيض بها شخصية المسيح(يسوع)(ع) ليدير حواراً معه، فيقول:

ألو
أريد يسوع
نعم .. من أنت؟
أنا أحكى من إسرائيل
وفي قدميّ مسامير.. وإكليل
من الأشواك أحمله
فأى سبيل؟
أختار يابن الله .. أى سبيل؟
أأكفر بالخالص الحلو أم أمشي؟
ولو أمشي وأحتضرُ
أقول لكم .. أماما أيّها البشر

(درويش، الديوان، ج ١: ١٥٠)

يجيبه المسيح(ع): «أماما أيّها البشر» أى عليه وعلى الشعب الفلسطينيّ أن يتحمّلوا الشدائد ويتجاوزوا الآلام والمعاناة.

فقد أراد الشاعر هنا عبر شخصية المسيح(ع) أن يصور الصراع القائم داخل النفوس الفلسطينية الحائرة في دربها وأن يسترشد بحكمة الأنبياء الرافضين للاستسلام، فالفلسطينيّ يعانى عذابه حائراً منتظراً ولادة فجر جديد مرتهن بأبطال متجدّدين؛ وبذا يحاول الشاعر فلسطينياً أن يستمدّ قوته من المسيح الحكيم المضحّى من أجل الإنسانية، الثابت رغم المعاناة، وليس ممّن يملك هذه القسامات إلاّ أن يحثّه على مواصلة المسير،

والشاعر يلجأ إلى ذلك مؤمناً بأن تلك الشخصية رمز للقوة والتحدى وأثناء ذلك يستدعى الإشارات الدالة عليها: «المسيح»، «يسوع»، «ابن الله» ويصوّر معاناة الفلسطينيين باستحضاره إشارات أخرى دالة عليه ومنها: «مسامير» و«إكليل من أشواك» (المصدر نفسه، ج ١: ١٥٠). لقد تضمن نصّ هذه المقطوعة الشعرية استدعاءً لشخصية المسيح (ع) وما يكتنفها من الآلام و العذاب مسقطاً تلك الشخصية على واقع الشعب الفلسطيني وما يزرع تحته من سجن وقتل وتشريد. فالشاعر العربي الذي يعيش في الأرض المحتلة يحسّ أنه مصلوب وشعبه وأرضه وبالتالي فالمسيح وما عاناه عند الصلب يشير إلى الجوّ النفسى الذى يعيش فيه الشاعر كما يشير أيضاً بقوة إلى المأساة الفلسطينية وبالتالي فشخصية المسيح تدعوه للنضال من أجل المستقبل الإنسانى، فليس هذا وقتاً للاستسلام والترجع والقهقرى. وتكون عبارة «أماما أيها البشر» معبرة عن الإصرار على مواصلة الدرب رغم المعاناة والألم. وفى هذا الاقتداء بشخصية المسيح (ع) الذى لم ينثنِ على صليبه، بل ظلّ منتصباً الهمة والهامة.

إنّ القصيدة الحديثة لها تشكيلها الخاص المرتكز على أساليب ملتوية، أبرزها الرموز الخاضعة لآليات مختلفة ورمز المسيح يتحرك داخل النصّ الشعريّ معبراً عن حرية الإبداع فى الزمن الحداثى، وهو عند درويش يسهم فى تحريك عناصر القصيدة والاتصال بها ويجسّد تجربته ويلبّي شأوه؛ إذ يقول:

أنا والمسيحُ على خالِنَا:
يَمُوتُ ويحيَا، وفى نَفْسِهِ مريمُ
وأحيا وأحلُمُ ثانيةً أننى أحلُمُ
ولكنّ حُلْمى سريعٌ كبرقيّةٍ
تُذَكِّرُنِي بالأخوّةِ بين السماوات والأرض

(درويش، سرسر الغريبة: ٩٦)

إنّ الشاعر، ههنا يوازى حالته بحالة المسيح (ع) مؤكداً على التطابق النفسى بينهما ولم يلجأ إلى التوحّد أو القناع بقوله: «أنا والمسيحُ على خالِنَا» إنّ درويش مُصرّاً على الحلم مستلهماً مواصفات المسيح (ع)، ففى السطر الثانى ربط الموت بالحياة ولعلّه هنا يستلهم فكرة القيامة استلهاً بعيداً عن المباشرة؛ إذ يعتقدون المسيحيون أنّ المسيح (ع) قام من

الأموات في يومه الثالث(العهد الجديد، الإصحاح السابع والعشرون: ٥٥). والذي يقرب هذه الفكرة قوله في السطر الثالث «وأحيا وأحلّم ثانية»، فالحياة هنالم تقترن بالموت كما السطر الثاني والقيامة عودة دائمة للحياة والموت والحياة بالنسبة للنبيّ/المسيح(ع) لا يعينان غير الدلالة الحقيقية. أمّا الموت والحياة بالنسبة للشاعر فلعلّهما تجارب الحياة المتراوحة بين الأمل واليأس ولعلّ الحلم هو الوسيلة إلى الحياة بمفهومها المعنوي. فلعلّ المسافة الشاسعة بين السموات والأرض تفرض مسافة شبيهة بين الشاعر وأمله في تحقيق أحلامه.

قد يمثّل «رمز/المسيح(ع) في تجارب بعض الشعراء مثلاً لربط حالة الظلم والقهر ونضال الإنسان في حياتنا المعاصرة بالواقع القديم لنضال/المسيح(ع) من أجل الإنسان»(شعث، الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر: ١١٣). فمعاناة/المسيح(ع) بما تشمل عليه من تصورات تنسلخ على الفلسطيني وتعبر عن معاناته بصورة أعمق، وتأتي تلك المعاناة مصحوبة بمعاني التسامح والحبّ والإنسانية والفداء في مقابل الظلم والخيانة والمخاتلة.

بما أنّ المسيحيّون «يعتقدون أنّ آدم ارتكب خطيئة بعصيانته الله تعالى، وبذلك يصبح كلّ أفراد ذريته خطاة؛ لذا يأتي/المسيح(ع) ليفدى البشر ويحمل خطاياهم»(مظهر، قصة الديانات: ٤١٤-٤١٣)؛ وبذلك «تكون المسيحية عنصراً ثميناً، بفكرتها عن رجل يموت فوق صليب من أجل خطايا البشر»(كولن، الشعر والصوفية: ٥٥). والصليب رمز يرتبط بـ"فلسطين" القديمة وقد أكثر درويش من استخدامه وتوظيفه في نصوصه الشعرية؛ ممّا ينمّ عن مدى اهتمامه بالثقافة الدينيّة وبيّن الجو النفسي الذي يعيشه(النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلّة: ٢١١). فمن يطلّع على دواوين درويش مبتدئاً بديوانه الأول «عصافير بلا أجنحة» يطالع رمز/المسيح(ع) وقضية "الصليب" ومتعلقاته قد غطّى مساحة شاسعة من دواوينه. لقد تردّدت عند درويش ألفاظ دالّة على هذا الرمز، مثل: "طلبان" و"صليب" و"يصلب" و"مصلوب" و"صلبوني" و...، ولعلّ أكثرها تردداً لفظ "الصليب" على أنه الشعار والرمز في العقيدة المسيحيّة وتردّدت عنده إشارات أخرى ترتبط بحدث "الصّلب" على أنّها من أدواته مثل: "الخشبة" و"القيود" و"إكليل الشوك" ...؛ إذ وضع على رأس/المسيح إكليل من الشوك قبل الصّلب

وكلّ تلك الرموز تشكل بمجموعها حدثاً تاريخياً، يحمل في كنهه بعداً يثير في النفس خلجاتها الروحية المشجية وتكاد تجتمع هذه الرموز في قصيدة واحدة عندما يقول الشاعر:

نَصَبُوا الصَّلِيبَ عَلَى الْجِدَارِ
فَكَّوْا السَّلَاسِلَ عَنْ يَدِي
وَالسُّوْطَ مِرْوَحَةَ ...
وَدَقَّاتِ النَّعَالِ
لَحْنٌ يَصْفَرُ:
سَيْدِي وَيَقُولُ لِّلْمَوْتِي حَذَارًا!
يَا أَنْتَ
قَالَ نَبَاحٌ وَحَش:
أَعْطَيْكَ دَرْبَكَ لَوْ سَجَدْتَ
أَمَامَ عَرْشِي سَجْدَتَيْنِ!
وَلثَمْتُ كَفِي، فِي حَيَاءٍ، مَرَّتَيْنِ
أَوْ ...
تَعْتَلِي خَشَبَ الصَّلِيبِ
شَهِيدَ أَغْنِيَةٍ.. وَ شَمْسٍ!
مَا كُنْتُ أَوَّلَ حَامِلِ إِكْلِيلِ شُوكٍ...

(درويش، الديوان، ج ١: ٩٩ - ٩٨)

الصليب رمز تبرّره مأساة الشاعر ومأساة وطنه ومن هنا يكون هذا الرمز في عملية النضال قدرة تحريضية، تظهر مدى قدرة الجماعة على استحضار الماضي يبرز الشاعر معاناته في النصّ ويستحضر النصّ الإنجيلي على لسان عدوّه المرموز له بالوحش. وذلك بقوله: «أعطيك دربك لو سجدت أمام عرشي سجدتين!». ففي النصّ الإنجيلي يأخذ "إبليس" /المسيح(ع) إلى جبل عال ويريه جميع ممالك العالم ومجدها، قائلاً له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي فرفض المسيح السجود إذا للربّ(الكتاب المقدس، الإصحاح الرابع، ١٠: ٧). من هنا يحوّل الشاعر دلالة النصّ بما ينسجم مع الواقع،

فـ"إبليس" يكون رمزاً للمحتل مستبدلاً لفظ "الوحش" به *والمسيح(ع)* يكون صورة للشاعر الذي يخيّره المحتل بين السجود والخنوع له من ناحية وبين الموت على الصليب من ناحية أخرى ويكون السجود مقابل أن يعطيه المحتلّ دربه؛ أي مقابل تخليصه من زنانات الصهيوني.

نوح(ع)= رمز البحث عن المصير والهدف

بالإضافة إلى استلهاهم شخصية سيدنا محمد(ص) التي أخذت دلالات متنوعة كثيرة في قصائد الشعراء المحدثين، عمد بعض الشعراء إلى استدعاء شخصيات دينية مقدسة وهذا ما نجده عند محمود درويش عندما استدعى شخصية نوح (ع) في قصيدته المعنونة بـ«مطر»:

يا نوح!

لا ترحل بنا

إن الممات هنا سلامة

إنّا جذور لا تعيش بغير أرض..

و لتكن أرضي قيامه

(درويش، الديوان، ج: ١، ١١١ - ١١٠)

فقد استحضر محمود درويش شخصية نوح(ع) من أعماق الموروث الديني ودفع بها على سطح الصياغة في مفارقة غريبة أوحى بالتوتر الناجم في القصيدة. فموقف نبينا نوح(ع) أنّه حاول أن يفرّ بأتباعه خوفاً من الطوفان ويستقرّ بهم في مأمن بعيد في حين أنّ الشاعر قد قام بانزياح دلاليّ إزاء قصته التاريخية واتّخذ موقفاً مغايراً للموقف الدينيّ تحمله رؤيته للموضوع؛ إذ أنّه يرفض فكرة الرحيل أو الهروب من موطنه، فالهروب من وطني يعني الموت. إذا كان سفينة نوح(ع) في قصة الطوفان وسيلة للنجاة، فهي في القرن العشرين وسيلة للرحيل عن الديار، فقد اتّخذت قصة الطوفان عند درويش بعداً شعورياً آخر يكمن في البحث عن وسيلة للنجاة دون الرحيل عن أرض الوطن الذي طغى عليه طوفان الأعداء(أبوشاور، تطوّر الاتجاه الوطنيّ في الشعر الفلسطينيّ المعاصر: ٣٢). ويأتي السطر الرابع ليعلل رؤية الشاعر مستخدماً أسلوب التوكيد لينزع كلّ الشكوك التي

يمكن أن تجول بخاطر مسامعه. يستلهم الشاعر أثناء ذلك الحدث المتمثل في إرسال نوح(ع) للحمامة ليستكشف الطوفان فأنته بورق الزيتون، ووجود الحمامة وغصن الزيتون في السياق يرمز إلى زوال الطوفان ولكنه ليس طوفان نوح(ع) وإنما طوفان الأعداء.

يوسف(ع) = فلسطين أو الأمة العربية الممزق المتردي

لقد وجد بعض الشعراء الفلسطينيين المعاصرين في الموروث الديني ما يعينهم على تأكيد قضاياهم الفكرية وقيمتهم الروحية، وبخاصة فيما يتعلق بقضية الصراع العربي الصهيوني وتعميقها في وعي المتلقي ومنحها بعداً شمولياً لذلك أولوا الشعراء الفلسطينيين اهتماماً كبيراً بالمعطيات الدينية، التي تتعرض لليهود وجرائمهم وكذلك استغلوا من الموروث الديني المواقف الثورية التي وقفت في وجه الظلم والقهر وقد كانت شخصيات الأنبياء والرسول(ع) من أكثر الشخصيات الدينية حضوراً لثرائها الدلالي وقدرتها على حمل أبعاد التجارب المعاصرة وقربها من معاناة وهموم الشاعر المعاصر(البنداري والآخرون، التناس في الشعر الفلسطيني المعاصر: ٢٤٧)، بإمكاننا أن نرصد مظاهر هذا الاستلهم في شعر محمود درويش، حيث نراه يستدعي الشاعر شخصية النبي يوسف(ع) ويتخذها قناعاً لنفسه، ويقول في قصيدة «أنا يوسف يا أبي» ويتعرض للعرب الذي باعوا القضية الفلسطينية كما بيع يوسف من قبل اخوته:

أنا يوسف يا أبي
يا أبي
إخوتي لا يحبونني
لا يريدونني بينهم يا أبي!...
يعتدون عليّ ويرموني بالحصى والكلام
يريدونني أن أموت لكي
يمدحوني.. وهم أصدوا باب بيتك دوني..

(درويش، الديوان، ج ٢: ٣٥٩)

استدعى درويش شخصية النبي يوسف(ع) بنية لما حلّ بفلسطين، حيث يشبهه نكبة بلده فلسطين وقضية شعبه التي تخلت عنها الدول العربية بقضية يوسف الذي تخلّى عنه

إخوته بعد أن غدروا به وألقوه في غياهب الجبّ. من هذا المنطلق، يشكو الشاعر من العرب عامة لموقفهم المخزى تجاه فلسطين أولاً واتّجاه القضايا العربية المصيرية؛ إذ أنهم عملوا كل شيء في سبيل موته، موت القضية الفلسطينية والقضايا العربية المصيرية، حيث رموه في غياهب الجبّ واتّهموا الذئب بدمه كذباً.

إنّ درويش استلهم من شخصيّة يوسف (ع) وجعلها قناعاً لنفسه حيث وجد بأنه من الصعب أن يعبر عن تجربته الشعرية بوجهها الحقيقي فيأتي الرمز الأسطوريّ للتعمية والابتعاد عن عين الرقيب من خلال أضلال صحراء الرمز والرمزية. قد اتخذ الشاعر النبيّ "يوسف" - عليه السلام رمزاً للتعبير عن الإنسان الفلسطيني، فتحول "يوسف" / الشاعر إلي نموذج للاجئ، الفقير، المنبوذ، وغدا فيها ناطقاً باسم القضية الفلسطينية، يرسم صورة صادقة لمعاناة هذا الشعب.

نتيجة البحث

محمود درويش من الشعراء المعاصرين الذين تميّزوا في توظيف التراث ويعتبر التراث مصدراً غنياً من مصادر إلهامه الشعريّ. استخدم درويش معالم من شخصيّة النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله وسلّم) وأدم وحواء (ع) وإسماعيل (ع) ويوسف (ع) و... تنسجم مع الرؤية الجهاديّة لدى الشاعر نظراً للتأثير الهائل الذي تركه الرموز الدينيّة واستحضارها على المخاطب والمتلقّي.

استحضر محمود درويش من الشخصيّات الدينيّة الشخصيّات التي تحمل دلالات إيحائيّة ورمزيّة تتناسب أفكار الشاعر وطروحاته.

استطاع محمود درويش أن يحوّل اللّغة الشعريّة إلى اللّغة الرمزيّة تستمدّ قدرتها الإيحائيّة الهائلة من تجاوزها للواقع. استطاع محمود درويش أن يحيل كلّ الرموز الموظّفة في شعره إلى الرموز النضالية ورموز التحدّي في سبيل الدفاع عن الوطن.

لم يقتصر محمود درويش على استدعاء الشخصيّات الإسلاميّة فحسب، بل امتدّ إلى شخصيّات باقي الأديان السماويّة في العالم واهتمّ بالفكر الإنسانيّ عامة. استخدام محمود درويش للرموز الإنسانيّة المتعدّدة، يبرز روح التسامح الدينيّ عنده. إنّ محمود درويش من خلال استدعاء الرموز التوراتيّة في شعره أماط اللثام عن وجه التّاريخ وممارسات

الصهاينة في فلسطين والأرض المحتلة. بدا حضور الآيات القرآنية متركزاً بشكل جزئيّ في شعر درويش وقد تكرّرت آيات قرآنيّة بعينها لديه، أمّا الأسفار التوراتيّة فقد أثرت في أعمال شعريّة دون أخرى؛ فقد كان لـ«سفر الجامعة» و«نشيد الأنشيد» و«مزامير داود» الأثر الأكبر في بلورة عواطف الشّاعر وإعادة صياغتها.

لقد أثر الرموز الدينيّة والتاريخيّة في الجانبين: الموضوعي والفنيّ في شعر محمود درويش ولعلّ الجانب الموضوعيّ كان أكثر تأثراً من الجانب الفنيّ. ولقد بدا التأثر بالجانب الفنيّ أحياناً سلبياً؛ وخاصة في الرموز التاريخيّة والأسطوريّة، حيث ساقط شعره إلى الغموض أحياناً.

إنّ الرموز التي اقتناها محمود درويش تتلائم مع الواقع الجديد الذي تعيشه البلدان العربيّة، بحيث تتعاطف معها الشعوب وتستمدّ من دلالاتها الرمزيّة في مواجهة الأنظمة الاستبدادية والاستكبارية.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الكتاب المقدس (أسفار العهدين القديم والجديد). ١٩٩٦م، مترجمة من اللغات الأصلية، شتوتغارت، ألمانيا: نداء الرجاء.

ابن كثير. د.ت، **قصص الأنبياء**، خرج أحاديثه محمد بيومي، عبدالله المنشاوي، محمد رضوان مهنا، د.ط، المنصورة: مكتبة الإيمان.

أبوشاور، سعدى. ٢٠٠٣م، **تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر**، الطبعة الأولى، خان يونس، فلسطين: مكتبة القادسية للدراسات والنشر والتوزيع.

أدونيس. د.ت، **زمن الشعر**، الطبعة السادسة، دار الساقي.

البياتي، عبدالوهاب. ١٩٦٧م، **ديوان المجد للأطفال والزيتون**، مصر: دار الكتاب العربي.

جحا، ميشال. ١٩٩٩م. **الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش**، مقدمة إحسان عباس، الطبعة الأولى، بيروت: دار العودة.

دباخ، سعيدة. ٢٠١٥م، **استدعاء الشخصيات التراثية في شعر حسين زيدان**، جامعة محمد خيضر بسكرة.

درويش، محمود. ١٩٩٠م، **أرى ما أريد**، ط١، بيروت: دار طوبقال للنشر.

درويش، محمود. ١٩٩٩م، **الديوان**، ج٢، الطبعة الثانية، بيروت: دار العودة.

درويش، محمود. ٢٠٠٠م، **الجدارية**، الطبعة الأولى، بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر.

درويش، محمود. ٢٠٠٢م، **حالة الحصار**، بيروت: دار العودة.

درويش، محمود. ٢٠٠٠م، **سرير الغريبة**، الطبعة الأولى، بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر.

درويش، محمود. د.ت، **الديوان**، ج١، بيروت: دار العودة.

درويش، محمود. د.ت، **لماذا تركت الحصان وحيداً**، الطبعة الأولى، بيروت: دار العودة.

زايد، على عشري. ١٩٨٠م، **توظيف التراث العربي في شعرنا المعاصر**، بيروت: الهيئة المصرية الهامة للكتب.

السعيد الورقي. ٢٠٠٥م، **لغة الشعر العربي، مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية**، مصر: دار المعرفة.

شاهين، ذياب. ٢٠٠٤م، **التلقى والنص الشعري**، الطبعة الأولى، إربد: دار الكندي للنشر والتوزيع.

شعث، أحمد جبر. ٢٠٠٢م، **الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر**، الطبعة الأولى، خانيونس: مكتبة القادسية للنشر والتوزيع.

الصكر، حاتم. ١٩٩٩م، **مرايا نرسيس الأنماط النوعية والتشكيلات البنائية لقصيدة السرد الحديثة**، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

- طاقة، شاذل. ١٩٦٩م، **ديوان الأعرور الدجال والغرباء**، بيروت: مكتبة الحياة.
- الطهراني، نادر نظام وواعظ، سعيد. ١٣٨٧م، **شذرات من النظم والنثر في العصر الحديث**، الطبعة الثانية، طهران: جامعة العلامة الطباطبائي.
- غنايم، محمود. ٢٠٠٥م، **مرايا في النقد، دراسات في الأدب الفلسطيني**، الطبعة الأولى، كفرقرع: مركز دراسات الأدب العربي، دار الهدى.
- فوزي، إيمان. ٢٠٠١م، **في الصحة النفسية**، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- كولن، ولسون. ١٩٧٢م، **الشعر والصوفية**، ترجمة عمر الديراوى أبوحجلة، الطبعة الأولى، بيروت: منشورات دار الآداب.
- مظهر، سليمان. ٢٠٠٢م، **قصة الديانات**، الطبعة الثانية، القاهرة: مكتبة مدبولي.
- الملوحي، مظهر وآخرون. ٢٠٠١م، **نشأة العالم والبشرية دراسة معاصرة في سفر التكوين**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الجيل.
- التقاش، رجا. ١٩٧١م، **محمود درويش شاعر الأرض المحتلة**، الطبعة الثانية، بيروت: دار الهلال.
- هلال، محمد غنيمي. ١٩٩٩م، **الأدب المقارن**، بيروت: دار العودة.
- هلال، محمد غنيمي. د.ت، **قضايا معاصرة في الأدب والنقد**، القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

المقالات

- أصلائي، سردار وشاملي، نصرالله وكرمي، عسكرعلى. ١٣٩٥ش، «**الرمز والأسطورة والصورة الرمزية في ديوان أبي ماضي**»، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ٢١، شتاء، صص ٢٠-١.
- البنداري، حسن والآخرون. ٢٠٠٩م، «**التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر**»، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، المجلد ١١، العدد ٢، صص: ٣٠٢-٢٤١.
- حمدان، عبدالرحيم. ٢٠٠٦م، «**استدعاء الشخصيات الوطنية والجهادية والتراثية في ديوان "حديث نفس" للشاعر الشهيد عبدالعزيز الرنتيسي**»، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الخامس عشر، العدد الأول، صص ١٢٨-٩٣.
- روشن فكر، كبرى و ذوالفقاري، كبرى. ١٣٩٥ش، «**بررسی تطبیقی ژرفاندیشی در شعر محمود درویش و قیصر امین پور**»، فصلنامه نقد و ادبیات تطبیقی، دانشکده ادبیات و علوم انسانی دانشگاه رازی کرمانشاه، سال اول، شماره ٢، تابستان، صص ١٣٠-٩٩.
- السلطان، محمد فؤاد. ٢٠١٥م، «**الرموز التاريخية والدينية والأسطورية في شعر محمود درويش**»، مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية)، المجلد ١٤، العدد ١، صص ٣٦-١.

سليمان، خالد. ١٩٨٧م، «ظاهرة الغموض في الشعر الحرّ»، فصول، مجلة النقد الأدبي، العدد الثالث والرابع، الهيئة المصرية الهامة للكتاب.

الشوابكة، محمدعلي. ١٩٩٥م، «توظيف التناص في "متاهة الإعراب في ناطحات السّراب" لمؤنس الرزاز دراسة في التناص القرآني والبنائي فكرياً وفنياً»، مجلة علمية محكمة ومفهرسة، المجلد العاشر، العدد الثاني، تصدر عن عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة مؤتة.

نظري، علي ووليئي، يونس. ١٣٩١ش، «استدعاء شخصيات الشعراء في شعر محمود درويش»، مجلة دراسات الأدب المعاصر، السنة الرابعة، خريف، صص ٢١ - ٤٢.